شناشيل

سعاد العريمي

كانت الكلمات تخرج من فمها كقوس قزح زاهية ملوّنة... كلمات جميلة وُضعتْ في فمها بشكل مرتب.

استجوبوها في كل نقطة وسألوها عن جواز السفر... قالت: «لا أحمل سوى البطاقة الجامعيّة»! أخرجتها، ونظروا إليها. تشاوروا ثم أعادوها. الكلمات كالشظايا، والرحلة على وشك الانتهاء.

اشرأبتْ أعناقُ المسافرين يستطلعون تخوم المدينة الضاربة في أعالي الجنوب.

تحركتْ تلك الجموع بحذر واختفوا كلمح البصر. ركبتْ سيارةَ الأجرة وقالت للسائق: «الميدان الكبير من فضلك».

قالت لها: بيتنا يقع خلف الميدان الكبير... له شناشيل، وعرشُهُ ياسمين وعلم أسود وعلم الدولة... أمي رفعت العلم عندما استشهد أخي... أما علم الدولة فيرفع علامة للنصر... عاد أخي من الجبهة. نام ثم مات... لقد مات أثناء النوم. لم نره.. أمّي وحدها هي التي استقبلته بعد منتصف الليل... ترجّل من السيارة وقال لها: لديّ أربع وعشرون ساعة فقط ثم أعود.. ضمّته الى صدرها وأخذت تراقبه وهو يخلد الى النوم.

وفي الصباح لم يستيقظ.. بكت أمي وتمنّت لو كُتبتْ له الشهادة.

كانت عيناها تحصيان شرفات المنازل ذوات العقود الخشبية المزخرفة والتي تتسلّقها شجيرات الياسمين... كل البيوت متشابهة.. وكل البيوت لها شناشيل وفيها عرشات ياسمين.

كان العلم الأسود يخفق على أحد البيوت وقد أُخرج من النافذة وربط بجانب حبل الغسيل. وما إن انعطفت في أول زقاق حتى اطلّت عليها الأعلام السوداء من على الأسطح والشرفات والشناشيل الخشبيّة.

كانت المدينة صامتة مبهوتة. وحدها أصوات صافرات التحذير تجلجل معلنةً وقوعَ الكارثة.

«عندما تدخلين أول زقاق سترين عريشة الياسمين وقد رُفع عليها العلم الأسود... وفي أعالي الشناشيل رُفع علم الدولة.. أمي رفعته حتى يعلم الجميع بأننا قدّمنا شهيداً».

شيخ المسجد قال لها: «ابنك شهيد». نعم يا أم جبار ابنك شهيد... وكل سكان المدينة شهداء. ألسنا تحت الحصار؟

كانت عيون المدينة ترقبها بصمت.. عيون مذعورة تتلصّص من خلف النوافذ والشناشيل وتسترق النظر الى تلك الغريبة العابرة المهرولة في الأزقة دونما وجل.

طرقتْ على تلك النوفذ وتعلّقتْ بسلاسل الأبواب ولم يأت صوت المستجيب للنداء. كانت نظراتها تفتّش في عمق المدينة.. قال لها السائق: «لقد هجروها. نزحوا».

وفي نقطة التفتيش قالوا لها: «لا يوجد أحد بهذا الاسم في المدينة.. أنت كاذبة، نحن كنا نراقبك منذ قدومك في قطار السابعة».. فتشوا الحقيبة وقرأوا المفكرة ثم أوصلوها الى المحطة وقالوا لها انتظري قطار الساعة السابعة.

كانت فلول النازحين تتزاحم في الوصول الى القطار. «هل لديك حجز»؟ سألها الرجل... «لا أنا أتيت هذا الصباح في قطار السابعة».. «وتغادرين في اليوم نفسه؟ الناس محجوزون بالأشهر.. كل الرحلات حُوِّلتْ للجنود، فقط رحلة واحدة في اليوم للمدنيين!».

كان صوته كالمطرقة.. يحجزون بالأشهر؟.. «ألا أستطيع أن أسافر في قطار الجنود؟» جفل الرجل.. «وهل تستطيعين؟! هل يمسحون بذلك؟.. ليس لي علم. هذه الأمور بيد الضابط»، وأشار الى العسكري الذي يقف في صفوف النسوة المتّشحات بالسواد.

كان الجنود يوزّعون الصناديق الخشبيّة حسب الأرقام: صناديق خشبية بها فجوات وفراغات قد سُدَّتْ بالقطن.. تتلقف النساء تلك الصناديق ويمضين، وما إنْ يضعنها على أكتافهن حتى يبدأن بأنين خافت... وما إن يستدرن عائدات حتى يصطفّ الجنود «تعظيم سلام» وتأتي قرقعة السلاح وهو يصطكّ بقامات الجنود... الا أن النسوة المتّشحات بالسواد يَنُؤن بأحمالهن ولا يُعِرن الجنود أيّ اهتمام.

كانت المحطة تبدو لها طويلة... «عندما تصلين إلى الميدان الكبير ثم تنعطفين في الزقاق المؤدي الى الميدان سترين شجرة كبيرة تتوسّط الشارع... هذه الشجرة عادة يتجمّع تحت ظلالها الجنود.. وتُعتبر نقطة تجمّع».. كانت حركة الجنود سريعة ومنظّمة وهم يحملون تلك الصناديق في العربات التي أزيلت مقاعدها.. وكانت الصناديق قد وضعتْ عليها أسماء الجنود وأرقامهم ومناطقهم.

«من الذي يقوم بترتيب هذه الأمور»؟. سألت الرجل مسؤولَ محطة القطار.. «شركات يا ابنتي، شركات مختصّة بهذا الشيء».. «هل أستشير الضابط»؟ «لا من الأفضل أن تصعدي الى العربة دون أن يراك.. إنهم شهداء.. كانت العربات قد خُصّصت حسب المناطق».

تحرّك قطارُ السابعة.. وكانت المدينة قد بدأت تستقبل ليلها المجهول.

إنّهم شهداء.. جبّار لم يمت في ساحة المعركة، بل عاد بعد منتصف الليل ومات.. لكنه شهيد. شيخ المسجد قال لأمي: «ابنك شهيد». كُتب على الصندوق: الشهيد (...) والصقت بطاقته العسكرية وشريط الإشارة في مقدمة النعش.

النعوش مرصوصة بشكل محكم، ليست هناك فجوة تسمح لها بالحركة.. وأخذت تحشر نفسها بين الصناديق.

المصباح يوشك على النضوب.. «خذي هذا الصباح.. كي تتحسّسي الطريق.. لا تخافي.. إنهم شهداء..» قال لها رجل المحطّة، ودسّ المصباح في يدها.

قطار الليل يمخر تلك السهول والمستنقعات والأهوار، وهي تحصي وتقرأ الأسماء.

لقد لُفّت مقدّمة القطار بعلم الدولة... أما مؤخرته فلُفّت بالعلم الأسود.. قال لها الرجل: «حتى يعرفوا بأنه يحمل الشهداء... شركات.. شركات تقوم بهذا الشيء. كل شيء معدّ ومرتّب».

كان الإعياء قد أخذ منها كُلَّ مأخذ، ورائحة القطار أصبحت لا تطاق.

«إنهم شهداء»... قال خطيب المسجد.. «للشهيد رائحة المسك.. رائحة دماء خاثرة»، قالت لنفسها.. وأفرغتْ ما بجوفها في الحال.

الصناديق نُضِّدَتْ بشكل مرتّب وقد سُدّتْ فجواتُها بالقطن والأقمشة، وكانت مرتّبة ونظيفة كصناديق البضائع، ولم تكن لها رائحة وليس بها دماء.. النعوش تنزف. لقد بدأت تنزف، واتسعت الفجوات، وهي تغالب الغثيان والدوار.. «هل الجثث تنزف؟» كانت تسأل نفسها، بينما قطار الموت يمخر تلك الأرجاء دون هوادة.